النصارى رواد الجهاز الاداري في الدولة الاموية

لعب عدد لا بأس به من النصارى العرب او من المسيحيين المتعربين دوراً هامًا في تكوين الجهاز الاداري للدولة الاموية العربية الاسلامية في الفترة الواقعة بين ٦٦١ - ٧٥٠م. وكذلك وضع هؤلاء النصارى البنية التحتية لهذا الجهاز اضافة الى مساهمات كثيرة وجليلة القدر في مجالات البُنى الاقتصادية والعلمية.

ويُطرح السؤال هنا هل اجازت الشريعة الاسلامية توظيف اهل الذمة وفي مقدمتهم النصارى العرب؟ جواب الشريعة الاسلامية صريح وواضح فهي لا تجيز من حيث المبدأ وظائف الدولة لمن هو ذمي الا على كره. فالقرآن الكريم صريح في هذا الباب: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين، ومَن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، الا ان تتقوا منه تُقية، ويُحذركم الله نفسه، والى الله المصير» (آل عمران ٢٨). وجاء في نفس السورة (آية ١١٨): «يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا بطانةً من دونكم، لا يألونكم خبالا، وَدّوا ما عَنتّم، قد بدت البغضاء من افواههم، وما تُخفي صدورهم اكبر، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون».

وتناقش علماء الشرع الاسلامي فيما بينهم في مسألة توظيف الذمي او عدمه. وكل فريق يدعم رأيه بآيات واقوال واجتهاد، ومع كل هذا فقلة بين العلماء قالوا بأنه يجوز للذمي شرعًا تولي المناصب في الدولة، حتى منصب الوزير. ولكنهم، لهذا الغرض، ميزوا بين وزير التفويض ووزير التنفيذ، فالاول يفوّض اليه الخليفة سلطته فيدير شؤون الدولة. بمبادرة شخصية وحرية شبه مطلقة، في حين يكتفي الثاني بتنفيذ أوامر السلطان. واجازوا بذلك للذمي تولي المناصب بما فيها وزارة التنفيذ، لانه يكون خاضعًا لاوامر وتوجيهات السُلطان.

هذا في باب الشرع الاسلامي ونظريات العلماء وآراء المفسرين، ولكن كيف كانت الامور على ارض الواقع؟

في الحقيقة انه لما انطلقت الدولة الاسلامية وجد الخلفاء انفسهم على رأس شعوب واقوام عديدة، متوزعة في بلاد شاسعة واسعة الاطراف، فاحتاجوا الى من ينشئ لهم جهازاً اداريًا منظمًا ومتطوراً يُسهّل عليهم التحكم بزمام الامور. ولم يكن لهم بدّ من اللجوء الى المسيحيين، وكانوا السكان الاصليين في الشام وفلسطين ومصر والعراق، يحسنون تسيير امور الحكام لتمرسهم وخبرتهم الواسعة في ادارة شؤون الدولة البيزنطية قبل قدوم الاحتلال العربي، اضف الى ذلك معرفتهم الجيدة بلغات عديدة كاليونانية والسريانية والعربية والفارسية. وقد حاول الخليفة عمر بن الخطاب الحدّ من نفوذهم، ولكن لم يكن ذلك بالامر اليسير لما كانوا يتمتعون به من خبرة ودراية في مجالات عملهم. ولقد اظهر معاوية من الحكمة واللين في هذا المجال ما سهل له اموره الادارية والتنظيمية، فأفاد من الكتّاب المسيحيين كمثل ابن أثال الذي ولي خراج حمص، وسرجون بن منصور جد القديس يوحنا الدمشقي، (سنأتي على تفصيل حياتهم واعمالهم لاحقًا).

ثم حاول الخلفاء عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك تقليص احتكار النصارى للوظائف بصرفهم بعضًا منهم وتعريب لغة الدواوين، إلا ان اليونانية ظلت سائدة في معاملات الدولة فترة طويلة، حتى انه وجدت قطع من البردي دُوّنت فيها امور حكومية باللغتين العربية واليونانية تعود الى سنة ٨٥٧ ميلادية اي في فترة الخلافة العباسية، أعني بعد سياسة التعريب بأكثر من قرن

ونصف القرن. ورغم ان سياسة التعريب (اي تحويل المعاملات الى اللغة العربية اضافة الى الزام الموظفين للتعامل بهذه اللغة فقط) قد قلصت من اعداد المسيحيين في الاجهزة الادارية الاموية، الا ان ذلك لم يؤد الى زوالهم لمعرفة كثيرين منهم اللغة العربية خير معرفة الى جانب غيرها من اللغات الاخرى. وتفيد الوثائق المدونة على اوراق البردي ان سائر كُتّاب الريف في الديار المصرية حتى آخر عهد الدولة الاموية كانوا من النصارى.

لاحظنا ان الشرع الاسلامي يحرّم من حيث المبدأ تولية المسيحي دون المسلم، ولكن الواقع المعاش يوميًا وظروف الدولة الفتية فرض على حكامها اللجوء الى العديد من الكتاب والوزراء النصارى. ومما يلفت الانتباه انه كانت عائلات عمل افرادها في الوظائف العليا منها بنو سرجون، وبنو العسّال وبنو الموصلايا.

اما الاسباب التي اوجبت الاستعانة بالنصارى في ادارة الدواوين والاجهزة الادارية الرئيسية فهي خبرة المسيحيين السابقة من العهد البيزنطي واجادتهم للغات مختلفة، مما يسهل لهم الافادة من غنى هذه الثقافات والحضارات الاجنبية. ولنا عن المامهم بالعلوم على انواعها وتفوقهم على زملائهم المسلمين شهادة طريفة لاحد مؤلفي القرن العاشر (المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم») جاء فيها ما مفاده: «قلما تجد مسلمًا يتعاطى الكتابة الا في طبرية، وما خلاها فكتّاب الشام ومصر هم من النصارى، لان المسلمين يعولون عليهم لسلامة انشائهم، ولأنهم - يعني المسلمين - لا يولون العلم كبير شأن على عكس ما هو حال الاعاجم. ويستطرد قائلاً: معظم الجهابذة والصيارفة والقصارين والدباغين هم يهود، اما الاطباء والكتّاب فهم في الغالب من النصارى».

ومما خفف من مسألة التحريم الشرعي لتوظيف المسيحيين بعض الاحاديث النبوية المنسوبة الى الرسول محمد، والتي تبين اهمية دور المسيحيين في حياة الدولة. ففي احدها ذكر: «وهم الاقباط اعوانكم على عدوكم واعوانكم على دينكم. قالوا: كيف يكونون اعوانًا على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم اعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة».

ولمّا كانت الدولة في كثير من الاحيان بحاجة الى الموظفين المسيحيين، سَهّل لهم الحكام الوصول الى المناصب، واذا ما اعترض عائق شرعي ذللوه بفتوى او ارادة سلطانية. ويروى في ذلك ان الخليفة العباسي المأمون ولّى على مدينة بورة في مصر حاكمًا مسيحيًا، فكان اذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد السيف وركب حماراً واصحابه بين يديه، حتى اذا اقترب من المسجد وقف عند بابه ودخل خليفته المسلم يصلي بالناس ويخطب للخليفة ثم يخرج اليه.

من جهة اخرى فإن الخلفاء المسلمين عمومًا، والامويين خصوصًا عرفوا معرفة جيدة ان استكتاب وتوظيف المسيحيين في الاجهزة الوزارية والادارية يمنحهم جاهًا ومكانة مرموقة في المجتمع. ومع كل هذا علم الخلفاء انه توجد حدود مفروضة على الوزراء والكتّاب المسيحيين، وذلك حرصًا من الخلفاء على مناصبهم وردة فعل المسلمين عليهم.

وان كان حسد العامة للموظفين المسيحيين قد شكّل لهم بعض الازعاج وبعض المصاعب احيانًا، فإن علاقتهم بالخليفة كانت لهم في غالب الاحيان مصدر اخطار جسيمة. ذلك بأن حاجة الدولة المستمرة الى اعمال كانت تدفع الخلفاء الى بذل المستحيل للحصول على ما ينقصها من نقود، فيحاسبون عملاءهم بمنتهى الشدة ويصادرونهم عن حق او غير حق. ناهيك من تصرفات الخلفاء المزاجية كالتي اتصف بها بعض الحديدين منهم، امثال المتوكل، او الغريبي الاطوار كالحاكم بأمر الله.

تلك حال وزراء النصرانية وكتّابها في الدولة الاموية والدول التي تلتها. هم اشبه بمن يقيم على كف عفريت، قد يناله السعد و ينال منه النحس. او هم كمن استوطن سفح بركان، فالارض فيه خصيبة تبشّر بغلال وافرة لمن جدّ في عمله واجاد، بيد ان الفوهة قد تطلق الحمم في ساعة لم يسبقها إعلان فيحلّ الاذى والخراب.

واليكم نموذجًا لعائلة مسيحية عملت في تنظيم الجهاز الاداري في الدولة الاموية، انها عائلة سرجون الدمشقية.

* منصور بن سرجون. عاش في اواخر القرن ٦ واوائل القرن ٧ للميلاد. كان عاملاً على الخراج اي مسؤولاً عن الوزارة المالية في فترة حكم الدولة البيزنطية. وروي عنه انه هو الذي

سلّم دمشق الى خالد بن الوليد عام ٦٣٥. ويبدو ان تسليمه هذا لم يكن عن خيانة بقدر ما كان عن رغبة في التخلص من المستعمر البزنطي، وكان من جراء خطوته هذه ان نالت المدينة كتاب الامان. ولما تولى يزيد بن ابي سفيان دمشق، ثبّت منصور بن سرجون في وظيفته السابقة وجعله من المقربين اليه.

* سرجون بن منصور - توفي في اواخر القرن السابع. كان متقدمًا بين الموظفين والكتاب لدى معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد ومروان بن الحكم الى فترة عبد الملك بن مروان، الى ان امره الاخير بأمر فتأخر عنه ورأى منه عبد الملك بعض التفريط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: ان سرجون يدل علينا بصناعته وأظن انه رأى ضرورتنا اليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوّلت الحساب من الرومية الى العربية. فقال:افعل .

* منصور بن سرجون (٦٥٥-٧٤٩)

كان هذا الشخص كاتبًا للخلفاء الامويين ومتقدمًا لديهم وصاحب سر وجاه. وساهم كثيراً في تنظيم شؤون الاجهزة الادارية كوالده من قبله. ولقد حرص والده على ان تكون له ثقافة عميقة في الدين والدنيا. واذ كان كل شيء يبتسم له، زهد في الغنى الوالدي، وغادر موطنه واسرته ويقال بعد جدل عقائدي مع مجموعة من علماء المسلمين، وانتحل الحياة الرهبانية في دير القديس سابا بالقرب من القدس، واصبح اسم منصور يوحنا الدمشقي، الذي حارب في اندفاع الابطال ضلال محطمي الايقونات، وترك مؤلفات كثيرة في اللاهوت، وهو اول من رتب هذا العلم على الطريقة المدرسية الشاملة جميع نواحيه. وهذه الاثار كانت ولا تزال الينبوع الغزير الذي يروي الجميع، وكان لها النصيب الاوفر في تكوين الفكر اللاهوتي في العصور الوسطى. توفي في ٤ كانون الاول سنة ٧٤٩. ولا يزال قبره الى اليوم يؤمه الزوار في دير مار سابا المذكور .

جوني منصور

محمد البشرى